

من كتب الشرق والغرب

كتاب الفاشوش

بقلم صلاح الدين . ومحدثا الرواة أن صلاح الدين كان يشرك معه بعض أولاده في إدارة مصر أثناء غيبته لما يعلم من عدم فظنته ونباهته . ولكن حدث ذات مرة أن ترك له حكم مصر منفردا ، فتشوش عليه الأمر ، وأتى في حكوماته بين الناس من الحمق والغفلة ما جعل أكبر كاتب فكاهة لعصره وهو ابن ممتي يضع عليه الحكايات المضحكة ، وقد نسقها في الكتاب الذي نحن بصدده الآن وسماه هذا الاسم الطريف « كتاب الفاشوش في حكم قراقوش » وإنه ليستله بقوله : « إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزنة فاشوش ، قد أئلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرد [على] كلمته ؛ ويشطط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يرجح منه المسلمين » .

ويذهب بعض المستشرقين ، وهو الأستاذ كازانوفا الذي عني ببحث هذا الكتاب ونشره ، إلى فكرة طريقة خلاصتها أن ابن ممتي لم يؤلف هذا الكتاب لغرض الضحك فقط عن غفلة قراقوش وغبائه ، بل ألفه سخطاً على الدولة الجديدة التي خلفت الدولة الفاطمية ، وهي دولة كانت تتعصب على القبط عكس دولة الفاطميين ، فأراد أن يكيد لها بتعقب أحد حكامها تعقبا مضحكا ، أو قل

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكاهية في تاريخ مصر العربية ، وقد ألفه ابن ممتي صاحب ديوان الجيش والمال لمعهد صلاح الدين ، أو كما نقول نحن الآن وزير المالية والحربية . وكان أبناؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى القاهرة في عهد الفاطميين واتصلوا بهم وفوضوا إليهم كثيراً من شؤونهم وأعمالهم . فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شريكوه من قبل نور الدين ، وأصبح إليهما أمر مصر اضطهدا موظفي الدولة من القبط ، واضطرت أسرة ابن ممتي تحت تأثير هذا الاضطهاد أن تسلم حتى تحتفظ بمكاتها في الدولة ، واستقام لها ذلك ؛ فان صلاح الدين قرب منه المذهب مماتي ، وجعله قيميا على ديوان الجيش ، فلما توفي خلفه ابنه في عمله ، ثم أسندت إليه الشؤون المالية فأحسن تدبيرها وتصريفها .

وقد اشتهر ابن ممتي في عصره بسرعة البديهة والذعر في النادرة . يقول ياقوت عنه في كتابه « معجم الأدباء » : « إنه كان ذا خاطر وقاد مسارع . ويقول أيضا : إن له نوادر حسنة حادة . وقد تعلقت هذه الشخصية الفكاهية بشخصية أخرى عاصرتها ، هي شخصية قراقوش التركي أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه ، وكان فيه — على ما يظهر — شيء من الغباء والغفلة والشدة والقسوة ، ومع ذلك كان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها في حروبه الصليبية ، وهو الذي قام على بناء قلعة الجبل المعروفة

ولما تخرجوها حتى تطلع ذقن هذا الرجل : وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن وتصور . ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءت يوماً بأحد غلمانه ، وقد قتل نفساً محرمة بغير حق ، فقال اشنقوه . فقيل له : إنه حدادك الذي ينعل لك الفرس ، فإن شنقته انقطعت منه ، فنظر أمام بابه ، فرأى رجلاً قفاصاً ، فقال : اشنقوا القفاص وسيبوا الحداد !

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هو المنطق الذي ألفناه ، فإن قراقوش يتصرف في القضايا بحق غريب ، وهو حق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقنا ، حتى فيه طيش وفيه غفلة وفيه ظلم صارخ . وهل يريد ابن مماتي غير ذلك ؟ إنه لا يريد إلا أن يعرض علينا قراقوش في صور مضحكة تضحكننا من حكوماته وما يعتورها من غباء وزق ، وما تخفى في باطنها من ظلم يجسمه ابن مماتي تجسماً . وإنا نضحك لا للظلم الذي وقع على هؤلاء الأشخاص ، وإنما للتباين بين المقدمات والنتائج . فسيده تدخل عنده لتشكو له خادمته ، فإذا هما تخرجان في حال شاذة ، إذ نرى السيدة أصبحت خادمة والخادمة أصبحت سيده ، وكذلك الشأن في الرجل « الأجرود » فقد دخل بدون حية ، وخرج ولا بد له من حية إلا أنها تنفت ، أو قل : دخل متهما وخرج متهما . وفي النادرة الثالثة نرى القاتل يبرأ ، والبريء يقتل ، وكأنما لسنا بازاء دار من دور الحكم والقضاء ، إنما نحن بازاء ملعب هزلي نرى فيه رجلاً يأخذ سم الحاكين ويصطنع شاراتهم ، ولكنه ما يبدأ النظر في القضايا والحديث مع الخصوم : المدعين والمتهمين حتى يشوش عليه الأمر ، فإذا هو يحكم دائماً حكومة مهوسة . وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذي يقبل الأوضاع

تعباً ساخراً ، يسخر آثاءه من صلاح الدين وما كان من طغيانه هو وحاشيته أو بطاته . وهي فكرة قيمة ، وإن كان يضعف منها أن ابن مماتي لم يكن نصرانيا حين تأليفه هذا الكتاب ، أو على الأقل ليس بين أيدينا دليل على أنه كان نصرانياً حينئذ ، إذ كان قد أسلم . ومع ذلك فربما كان أسلم على ضغن وموجدة . ومن يدري لعل المصريين جميعاً قبطاً ومنسلين كانوا يتعصبون على دولة صلاح الدين ، وخاصة أنه ألقى كثيراً من أعيادهم الفاطمية ، وأيضاً فإنه اتعهم في غاراته وحروبه الصليبية . ويظهر أن بطاته كانت كلها أجنبية أو تكاد . ومن هنا تسلل بعض معاصريه ، وهو ابن مماتي إلى الكيد لهذه الدولة عن طريق الفكاهة ، وهو كيد قديم عرفت به مصر منذ عهد الرومان ؟ فقد كانوا يستقبلون ظلم بعض القياصرة بالفكاهة الساخرة ينفسون بها عن صدورهم . وهذا هو ما لجأ إليه ابن مماتي في عهد صلاح الدين ، فقد تعقب أهم قواده ، وما كان من حكوماته الطائفة بين المصريين ، فألف فيها هذا الكتاب الطريف كتاب الفاشوش . وأول ما نلقاه في الكتاب من هذه الحكومات أن سيده حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء فرد شكواها عليها مدعياً أنها ليست السيدة بل هي الجارية ، والجارية هي السيدة ، وهم يجلسها لولا أن تدخلت الجارية فغفت عن سيدتها . وتغضي حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب : فمن ذلك أن رجلين من أصحاب الحج الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلاً « أجروداً » كان ما يزال يبعث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما فلم يجد له حية ، حينئذ قلب الوضع في القضية إذ ظن أنهما هما اللذان اعتدبا عليه بنتف لحيته ، فصاح في غلمانه : ودوما إلى السجن

التشهير بقراقوش وحكوماته بين الناس ، وهو لم يبلغ ذلك عن طريق هجائه لقراقوش بالشعر ، وكان شاعراً ممتازاً ، وإنما بلغه عن طريق هذه النوادر الشعبية التي اختار لها لغة المصريين الدارجة ، وكأنه كان يريد أن يطابق بين ما يرويه وبين اللغة الحقيقية التي كانت تدور بين قراقوش ومن يحكم بينهم من الناس حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة . ولعله كان يريد لهذه النوادر أن تشيع بين العامة ، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة ، وهي فعلاً قد شاعدها فان المصريين في مدنها وريفهم كلما قابلهم حكم ظالم قالوا : « دا ولا حكم قراقوش » . وقد يكون قراقوش دون كل هذا الظلم الصارخ الذي صورته ابن مماتي كما يذهب إلى ذلك الدكتور عبد اللطيف حزمة في كتابه « حكم قراقوش » ، فقد نصب نفسه في هذا الكتاب مدافعاً عن قراقوش في تحيز ظاهر . ونحن لا نستطيع أن ننفي ما أثبتته كتاب الفاشوش على قراقوش من ظلم وغباء ، فإن نفيه لا يدل عليه دليل واضح ، بل المعقول أن يكون على الأقل لهذه الحملة التي حملها ابن مماتي على قراقوش أصل من سيرته وخلقته وحكوماته بين الناس .

وقد وفق ابن مماتي توفيقاً لا نظيره حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الفكه ، وهو عرض أراد به أن يشوه الدولة الأيوبية الجديدة كلها ومن تصطنعهم في أعمالها وشؤونها ، وإنه ليستمر فيروى نادرة بدعية ، وهي أن شيخاً وصياً أمرد احتكاً إلى قراقوش في دار ، كل منهما يدعي أنها له ، فلما مشلا بين يديه قال قراقوش للصبي : أمعك كتاب يشهد لك ؟ ثم رجع إلى نفسه فقرأى له أن الدار لا تكون إلا للشيخ الكبير ، حينئذ قال للصبي : يا صبي ادفع له داره ، وإذا صرت في

في قضاياه قلباً يزرى بقولنا لأنه يلغيا إلفاء ، يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم . ونستمر في قراءة كتاب الفاشوش ، فإذا ابن مماتي يروى أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يهيئ له حساب القمح والشعير والفول والحمص ، وقام القاضي بطلبه ، إلا أنه وضع الحساب كله في جريدة واحدة أو كما نقول نحن الآن في صحيفة واحدة ، فاختلط الأمر على قراقوش ، وظن أن الثاني خلط هذه الأصناف بعضها ببعض ، ولولا ذلك ما استطاع أن يجمعها في جريدة واحدة وأمر بحبسها ! وتنبه القاضي للسألة ، فأرسل إليه من الحبس بحساب كل صنف في جريدة على حدة . حينئذ سر قراقوش وغفا عنه قائلاً : لقد تعبت يا فقيه ، نقيت هذا من هذا وذا من ذا ، زفوه في المدينة . أرأيت إلى ابن مماتي كيف يسخر من قراقوش إذ جعله يظن حين أفرد القاضي كل صنف بجريدة أنه نحى الأصناف بعضها عن بعض . وينقلنا ابن مماتي من هذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل عنها طرافة ، وذلك أن النيل توقف بمصر أياماً ، فنظر قراقوش فرأى جمال السقايين وهي تسير في شوارع القاهرة عشرين عشرين فقال : يا غلمان ! نادوا في المدينة قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يعمل أحد من البحر إلا جلاً واحداً ، ففعلوا ذلك ، فأوفى النيل فقال : يا هؤلاء ! كيف رأيتم رأيي عليكم ؟ ما هو إلا رأي مبارك . وكأن قراقوش ظن أن هذه الجمال هي التي تنقص ماء النيل فتمنع الفيضان ! وأيضاً فقد فاتته أنها إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل الماء مجتمعة ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة ، ففكه من هذه الناحية لا نتيجة له ، ولكنه قراقوش مثله عصره والمصور التالية في الغفلة والغباء . وما نظن أحداً في تاريخ مصر والمصريين بلغ من التشهير بنحاكم ما بلغه ابن مماتي من

فقالوا يا مولانا هذا خشب لا يعقل ، فقال افعلوا ما أمركم به فدوه وضربوه ونزل قراقوش ووضع أذنه بجانبه وجعل يوشوشه ، فلما فرغ قال : اجعوا لي باقي أهل الحارة ، فلما حضروا قال لهم الدرب يخبرني أن الذي سرق العملة على رأسه ريشة ، وكان سارق العملة (واقفيا) بجملته الناس ، فتوهم ورفع يده إلى رأسه ، فراه قراقوش ، فأمر به وقرراه بالضرب ، وأحضر العملة ودفعها إلى أصحابها . « وما من ريب في أن هذه النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا في عصره وبعد عصره . ويحكى السيوطي أيضاً أنه « كان بمصر رجل تاجر وكان بحيلة ، وكان ولده يقترض على موته قدراً معلوماً ، فزاد عليه ، ومات والده ، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة ، فدخل هو والدائنون عليه ، وغسلوه ، وكفنوه ، ووضعوه في النعش وهو يستغيث فلا يثاق ، وجاءوا حول تابوته ذاكرين يصيحون حوله ، فلما دخلوا للصلاة عليه اتفق أن قراقوش كان ماراً فنزل وصلى عليه ، فلما سمع الميت بذلك قال : الحمد لله جاءني الفرج بفلس في التابوت ، وقال يا مولانا السلطان ! خلص حق لي من ولدي فانه يريد دفني بالحياة ، فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب على يا مولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ، ولا حملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء (الحاضرين) يشهدون بذلك ، فقالوا نشهد بما قال الولد ، فالتفت قراقوش للميت وقال : أنا جئت أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ، روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم ، فحملوه ودفنوه بالحياة في ذمة قراقوش . » ويحكى السيوطي أيضاً : « من طرفه أنه طار له باز ، فقال : أقفلوا باب النصر ولباب زويلة ،

عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك الدار ! وعلى هذا النسق ما يزال ابن مماتي يصور قراقوش في هذه الصور الهزلية التي كان يسمر بها المصريون لعهد صلاح الدين سمرأ فيه لهو ومتعة ، وفيه هذا البلاء الذي صبه قراقوش على رءوس الناس . والغريب أن ابن مماتي حين تصدى له في هذه النوادر والفكاهات لم يترك منه جانباً إلا وشوهه ومسح خلقه حتى دينه ، فقد قص أن شاعرا تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره ، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش : « يا مقريء ! لقد قرأت قراءة طيبة . » فقد ظنه يتلو قرآنا ، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر ، وليس ذلك كل ما يريد خصمه به ، فانه يريد شيئا وراء ذلك ، يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحاً مما يقال فيه ذم .

ومهما يكن فإن ابن مماتي عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية روائية الغفلة والحق . وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطاً وألواناً أخرى ، إذ نسب إليها كثير من القصص المضحك . بل إننا نجد كتباً تروى نوادرها ، كتباً جديدة ، فقد ألف السيوطي كتاباً استعار له نفس اسم كتاب ابن مماتي ، ولكنه يختلف عنه في كثير من طرفه ونوادره ، مما يدل على أنه من صنعه أو على الأقل من صنع الأجيال التالية لابن مماتي ، وهو حقاً يلتقي مع كتاب ابن مماتي في كثير من نوادره ولكنه ينفرد بطرائف جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية روائية ، فالرواة والقصاصون يضيفون إليها كثيراً من النوادر والحكايات المضحكة . ولعل من أطرف ما ساقه السيوطي ما رواه من أنه « سرت عملة في زمن قراقوش ، فقال لأصحاب العملة : الحارة بتاعتكم لها درب (يريد باباً) فقالوا له : نعم . فقال : اذهبوا اثبتوني به ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه ، فقال مدوه ،

